ذكرياتي مع مجمع خاصكي سلطان المعماري

" العمارة العامرة " *

يوسف سعيد النتشة **

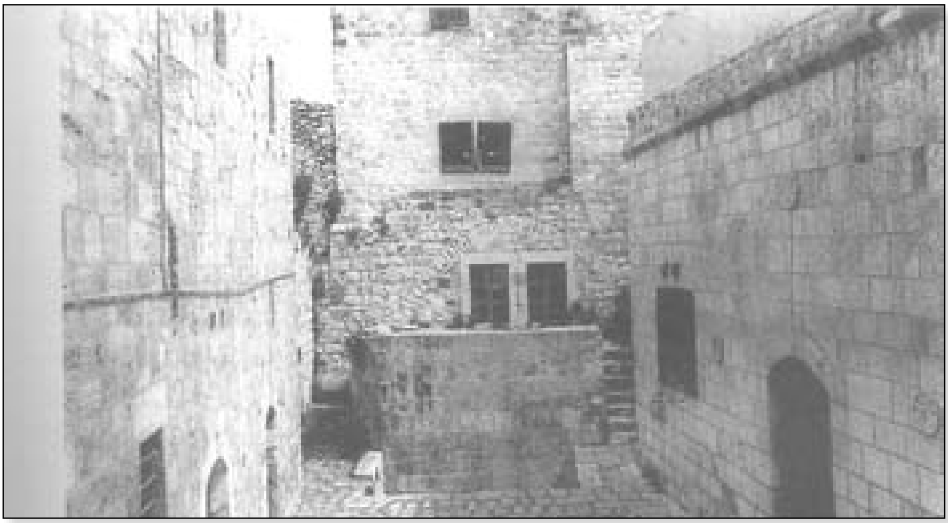

العمارة العامرة (خاصكي سلطان) منطقة القسم الشمالي الشرقي من المجمع

لا يهدف نشر المقال بالعربية إلى دراسة مجمع خاصكي سلطان، فهذا أمر لا يتسع له المقام هنا، علاوة على أن المجمع نال حظاً كبيراً من الدراسة قياساً بغيره من العمائر. فإلى جانب الدراسة المعمارية التي أنجزها الكاتب[١] مؤخراً، في الكتاب الموسوعي القدس العثمانية، هناك دراسة أخرى قام بها مهندس بريطاني،[٢] نشرت في الكتاب نفسه. والمقابلة بين الدراستين، وإن كانت كل منهما تعتمد على منهج مختلف، تظهر أهمية هذا المجمع، علاوة على الإنجاز، وبخاصة فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية التي توفرت عنه. ولم يقف هذا الأمر عند هذا الحد، بل إن أحد الزملاء الباحثين[٣] سجل مجمع خاصكي سلطان موضوعاً لأطروحته لدرجة الدكتوراه. وهناك باحثة[٤] أخرى في جامعة تل أبيب بصدد إخراج كتاب آخر عن شخصية الواقفة خاصكي سلطان.[٥] وقد توجت هذه الجهود بما يقوم به المكتب الفني في مؤسسة التعاون من دراسات مستفيضة عن هذا المجمع تغطي المناحي التاريخية والمعمارية والميكانيكية والكهربائية، تمهيداً لترميمه

* المصدر: Jerusalem Quarterly File، no. 7، winter 2000، pp. 29–35
أدخل الكاتب بعض التعديلات على الترجمة هذه، وأخذنا الصور المدرجة هنا من:
Sylvia Auld and Robert Hillenbrand، eds.، Ottoman Jerusalem: The Living City: 1517–1917 (London: Altajir World of Islam Trust، 2000)، part II، pp. 778، 781، 783.

** باحث في عمارة القدس، يعمل رئيساً لقسم الآثار الإسلامية في دائرة أوقاف القدس.

وصيانته ومده بأسباب المنعة والبقاء. وتسعى الدكتورة شادية طوقان، مديرة المكتب الفني، لإخراج دراسة عن مجمع دار الأيتام الإسلامية تغطي مشروع الترميم، وتمد المعرفة بمعلومات معمارية وتاريخية شاملة.

يوجد مجمع خاصكي سلطان أو كما يسمى بالوقفية[٦] "العمارة العامرة"، في قلب البلدة القديمة من مدينة القدس، حيث يبعد نحو ١٥٠ متراً إلى الغرب من باب الناظر، أحد أبواب الحرم الشريف.

والمدخل الشمالي للمجمع يقع في طريق عقبة التكية، والتكية تعني في لغة أهل القدس العامية مكان الأكل المجاني. والمدخل الجنوبي يقع في طريق عقبة السرايا، والسرايا تعني مقر الحاكم أو الوالي، نسبة إلى مقر المحافظ العثماني قبيل الانتداب البريطاني (١٩١٧-١٩٤٨).

ويحيط بالمجمع من الشرق مبنى المدرسة المارودية[٧] ومبنى رباط بايرام جاويش، ومن الغرب قصر الست طنشق المظفرية.[٨] وقد تداخلت واندمجت هذه المباني بعضها في بعض منذ زمن بعيد، وشكلت وحدة معمارية معقدة أطلق عليها اليوم اسم "دار الأيتام الإسلامية".[٩]

ينسب هذا المجمع، كما يلاحظ من اسمه "خاصكي سلطان"، إلى روكسلانة (**Roxelane**) زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦)، التي تعرف باسم خُرم، الذي يعني الضاحكة، أو المرحة. لكنها تعرف في المصادر العثمانية باسم خاصكي سلطان الذي يعني أثيرة السلطان، أو محبوبة السلطان. وقد استغرق بناء المجمع نحو أربعة أعوام (١٥٥٢ - ١٥٥٦)، وهو ليس أكبر وأوسع مؤسسة خيرية في القدس فقط، بل في فلسطين كلها أيضاً.

لم يكن يدور في خلدي وأنا طفل صغير لم أتجاوز الثامنة من عمري، في مطلع الستينيات من هذا القرن، وأنا أدخل المجمع أول مرة، أن علاقتي به لن تنقطع أبداً، وأنها ستستمر إلى درجة أن يشكل هذا المجمع العمود الفقري لأطروحتي لنيل درجة الدكتوراه في العمارة الإسلامية العثمانية في القرن السادس عشر.[١٠] والواقع، وما أختزنه من ذكريات، يشيران إلى أن علاقتي بهذا المجمع مرت بأربع مراحل.

أذكر جلياً أن المرحلة الأولى تعود إلى أيام الطفولة، أسعد الأيام وأحلاها، على الرغم من صعوبتها وقسوتها على فلسطينيي البلدة القديمة، حيث كانت فرص العمل محدودة. أذكر كيف كنا نتنادى، أنا ورفاقي في الحي المجاور لخاصكي سلطان في عقبة السرايا، في الصباح الباكر بعد شروق الشمس بقليل، كي نذهب لإحضار الشوربة المجانية من مطبخ خاصكي سلطان. حينما كنا نذهب كانت أزقة البلدة القديمة هادئة، تخلو من المارة، عدا المبكرين إلى أعمالهم ورجال البلدية الذين يحافظون على النظافة ويقومون بجمع النفايات عملاً لا قولاً كما نراهم اليوم.

أذكر طرافة أشكال الأوعية التي كنا نجلب فيها الشوربة، وكيف أن البعض كان يصحب معه وعاء كبيراً أملاً بالحصول على كمية أكثر من المغرفة التي حددتها الواقفة خاصكي سلطان، لكن من دون جدوى. كنا غالباً نصف "طابور" بالدور ننتظر أحياناً نضج الشوربة، وأحياناً كنا ببراءة الأطفال الصغار وحذلقتهم نتدافع ونتناصر لبعضنا البعض،

آملين بالعودة المبكرة من ناحية، وبالحصول على الشوربة قبل نفاد الكمية من ناحية أخرى. ما زلت أتصور فرحة الأطفال الذين كانوا يحصلون على الشوربة. لكن أتذكر بصورة أقوى وأوضح خيبة الأمل والحسرة التي كانت تصيب الأطفال حين تنفد الكمية. كان البعض يحس بأنه فقد شيئاً ثميناً على الرغم من أنها شوربة بسيطة.

في تلك السنين من ستينيات ذلك القرن، كنا، كأطفال، نحس بالرهبة حينما نشاهد وعاء الطبخ الكبير جداً،(١١) وعلو المداخن والقبة المركزية فوق قاعة الطبيخ. كان أهل القدس يأخذون الشوربة لتسد لبعضهم رمق وجبة الفطور، والحاجة كانت الدافع الأول إلى ذلك. لكن ثمة عائلات كانت ترسل أطفالها بدافع البركة ولمذاق الشوربة الشهية المميزة الذي كان يتعذر الحصول على مثيله في مطابخ البيوت. كانت تلك الشوربة تحلّى بالسكر في الأغلب، وقلة كانت تضيف إليها سمناً ومكسرات. كانت مجموعة من تجار البلدة القديمة في القدس المقتدرين ترسل أحياناً من يحضر لها شوربة رغبة في مذاقها، واعتقاداً منها ببركة أكلها؛ وعليه فالشوربة في القدس، مثل سماط إبراهيم الخليل، لم تقتصر على الفقراء، بل على المقتدرين وعلى من يرغب في التذوق أيضاً.

بعد وقوع القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي في حزيران / يونيو ١٩٦٧، انقلبت أوضاع السكان وتغيرت أحوالهم. كانت عائلتي حينها قد انتقلت من البلدة القديمة إلى منطقة رأس العمود، التي تبعد نحو ٢ كم إلى الشرق من أسوار القدس، وذلك لضعف البنية التحتية للبلدة القديمة، ولصعوبة تأهيل كثير من البيوت السكنية كي تتحمل تقليص المساحة السكانية الذي أحدثه تفريغ حارة الشرف وحارة المغاربة من سكانهما، الأمر الذي أدى إلى ضغط على الأحياء الأخرى لاستيعاب هؤلاء السكان، على الرغم من أن عدداً من سكان تلك الأحياء كان نزح إلى الأردن مباشرة بعد سنة ١٩٦٧.

وعلى الرغم من انتقالي من البلدة القديمة، فإن ضائقة التعليم ومناهجه سرعان ما عادا بي شخصياً، لا إلى البلدة القديمة ثانية، وإنما إلى خاصكي سلطان مباشرة، لكن هذه المرة لتلقي العلم لا لتناول الشوربة. ومن المعروف أن السلطات الإسرائيلية سارعت بعد سنة ١٩٦٧ إلى فتح المدارس الحكومية التي كانت تدرس المنهج الأردني، رغبة منها في تطبيع الحياة بعد الاحتلال بالسرعة الممكنة. لذا التحقت وأقراني بالمدرسة خاصتنا، لكن ما لبثنا أن اكتشفنا كطلاب أن المناهج تغيرت وتبدل وتحور ما فيها من معلومات ومختارات؛ فتم إحلال آيات من القرآن بدلاً من آيات سابقة، وأدخل شعر الشاعر الجاهلي السموأل بن عاديا، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. لكن التغيير أصاب معظم الموضوعات الأدبية والثقافية، الأمر الذي جعل الطلاب في تناقض مستمر مع ما درسوه في الماضي وما يدرسونه في المناهج الإسرائيلية، وهذا أدى إلى نقاش وصل أحياناً إلى حد التصادم الفكري مع المدرسين، وبخاصة أن بعضهم لم يكن من الأكفياء المؤهلين ممن تم تعيينهم حديثاً لعزوف ورفض أغلبية المربين العمل مع السلطات الإسرائيلية في حينه. وخلاصة القول: إن النتيجة كانت أن هذا المنهج لن يكفل لنا النجاح أو الاستمرار في التعليم الجامعي، ولابد من استبداله.

وتزامن في الوقت نفسه أن تداعى نفر[١٢] من المربين الأفاضل والمدرسين المخلصين، إدراكاً منهم للمشكلة وأبعادها، وبالتنسيق مع المؤسسات التربوية في الأردن، وعملوا على فتح مدارس وطنية كي تحل محل المدارس الحكومية، لتدريس المنهج الأردني. ومن تلك المدارس كانت مدرسة دار الأيتام الإسلامية، التي اتخذت من خاصكي سلطان والمارودية ورباط بايرام جاويش مقراً لها.

حين عدت إلى هذا المجمع على مقاعد الدراسة في العام ١٩٦٩ / ١٩٧٠، بدأت علاقتي بالمرحلة الثانية تتبلور. والواقع أنني والطلاب صدمنا بواقع المدرسة الجديد علينا. فهي ذات مدخل معتم ودرج طويل ضيق، لها ساحات لكن ذات مستويات مختلفة؛ البلاط قديم جميل لكن فيه حفراً كبيرة وبحاجة إلى صيانة؛ الغرف إمّا واسعة جداً وإما ضيقة لا تفي بالغرض، ومن كليهما كانت القصارة تتساقط.[١٣] لا توجد في المدرسة ملاعب ومختبرات ومكتبة، وبدا لنا أن الانتقال من المدرسة الراشدية إلى هذه المدرسة كالانتقال من العصور الحديثة إلى العصور الحجرية.

على الرغم من هذه الصورة القاتمة فقد استقطبت هذه المدرسة، على ضعف إمكاناتها، طلاباً كثيرين، أصبح الآن عدد منهم من مثقفي البلدة القديمة والقدس، ومن المدرسين في المدرسة ذاتها أيضاً. وساعد في نجاح هذه المدرسة عاملان: الأول تمثل برفض السكان والطلاب للمنهج الاسرائيلي في التدريس؛ والثاني تولي إدارة هذه المدرسة مدرسون وتربويون أفاضل من أبناء فلسطين ممن عرفوا بإخلاصهم ووفائهم وثقافتهم العالية، فعوضوا بذلك عن وسائل الإيضاح والترفيه التي كانت معدومة، وعن المشكلات التي لا حل معقولاً لها.

عندما عدت إلى هذه المدرسة في أواخر المرحلة الثانوية، انتعشت ذكرياتي الأولى عن هذا المجمع. ومع فارق الوعي بين المرحلتين، فإن اهتمامي ووعيي الأثري للمجمع لم يتجاوزا معرفتي المحدودة ليصلا إلى سبر غور تاريخه العريق. كنت وزملائي في الصف والمدرسة نتجول بين جنبات المجمع، ننظر في نسيجه المعماري، ندرك أنه قديم ومرتبط بتاريخنا، لكن لم نكن نعرف تاريخ المجمع ولا تطوره المعماري، ولا المغزى الذي يكمن وراء اهتمام الزوار والسياح به. ولا سر التقاطهم الصور الفوتوغرافية للواجهات والمداخل والزخارف الجميلة.

بعد حصولي على درجتي الجامعية الأولى من جامعة القاهرة في الآثار الإسلامية سنة ١٩٧٧، وقع على عاتقي، مع زملاء آخرين، إنشاء قسم للعناية بالآثار الإسلامية تابع لدائرة الأوقاف الإسلامية في الحرم الشريف. وبعد فترة وجيزة حظيت برئاسة هذا القسم حتى تاريخه. وحينها بدأت المرحلة الثالثة من العلاقة التي ربطتني بهذا المجمع المعماري. هذه المرحلة يمكن أن تعتبر مرحلة بداية تكون الوعي الأثري والمعماري لديّ، لا لهذا المجمع فقط، بل أيضاً للبلدة القديمة في القدس بشكل عام. بدأت علاقتي تتنامى مع مرور الزمن، وخصوصاً عندما كنت أصحب طلاب الجامعة والمهتمين في زيارات ميدانية استكمالية لأرشدهم في العمائر والمباني الإسلامية، فكان هذا المجمع يحظى بالتقدير والإعجاب.

بلغت علاقتي بمجمع خاصكي سلطان الأوج حينما وقع اختياري على "المباني العثمانية العامة في القرن السادس عشر" لتكون موضوعاً لأطروحتي للدكتوراه في سنة ١٩٩٢. ومنذ ذلك الحين وأنا لم أنقطع عن التردد على هذا المجمع، محاولاً الإجابة عن الأسئلة المستعصية التي لم أجد لها جواباً في السابق. كنت أزور المجمع لأحاول الإجابة عن قضية، فتظهر لي عدة قضايا جديدة بحاجة إلى إجابة شافية. إن من المسائل المهمة التي يطرحها هذا المبنى الكبير حدوده ومكوناته حينما بني في أول الأمر في القرن السادس عشر، ومن هم المعماريون الذين بنوه. هل هم محليون؟ وإذا كان الجواب سلباً، فمن أي المناطق قدموا؟ وهل صحيح ما أشيع من أن المهندس العثماني الذائع الصيت سنان هو الذي صمم المجمع، وإذا كان كذلك، فأين نجد أسلوبه وتأثيره في العمارة في القدس الشريف؟

إن هذه النقاط مثار الجدل والخلاف وغيرها تكتسب أهمية كبرى إذا ما أدركنا أن مجمع خاصكي سلطان هو مجمع سلطاني، كان موضع اهتمام ورعاية معظم السلاطين العثمانيين على امتداد أربعة قرون، وأن المطبخ السلطاني الذي خصص أصلاً للفقراء والصوفية من المجاورين في بيت المقدس، ما زال يقدم الطعام أسبوعياً والشوربة يومياً إلى الراغبين والمحتاجين، على الرغم من ضياع وطمس جميع أراضي الوقف، وبخاصة بعد سنة ١٩٤٨.

إن هذا المجمع حينما أسس كان يتألف من أقسام عدة، بعضها ما زال قائماً، وبعضها اندثر مع الأيام والزمن. وكان من مرفقاته وأقسامه: خان كبير لنزول المسافرين والتجار؛ مسجد ذو قباب وعقود لإقامة الصلوات وقراءة القرآن، والدعاء للواقفة بحسن أعمالها؛ رباط مؤلف من ٥٥ غرفة لإقامة الصوفية والفقراء والمجاورين في بيت المقدس. وأخيراً أسس مطبخ كبير ألحق به فرن وطاحونة ومخازن عدة وسبيل لتوفير المياه العذبة للمقيمين وللطبخ.

لقد أوقفت خاصكي سلطان على مشروعها الخيري الاجتماعي الكثير من الأوقاف، لتكفل له دوام البقاء والاستمرارية. وكانت من السخاء، بحيث أن جميع الدخل الناتج لنحو ٣٠ بلدة وقرية فلسطينية وغير فلسطينية كان يصب في ميزانية هذا المشروع. وأردفت هذه القرى ومزارعها وحقولها بنحو أربع قرى إضافية من وقف السلطان سليمان القانوني لدعم الوقف بعد وفاة زوجته خاصكي سلطان مباشرة. وقد كانت هذه القرى موزعة على مناطق وولايات عدة في غزة، ونابلس، والقدس، وصيدا، وطرابلس الشام.

أشرف على إدارة هذه المؤسسات مجموعة من كبار موظفي الإدارة العثمانية. وكان متولي الوقف يرسل من استنبول مباشرة، وكان يعاونه وتحت إدارته نحو خمسين موظفاً. كل منهم موكل بعمل محدد وفق شروط الوقفية وتوصيف وظيفي مفصل. فقد كان هناك شخص يشرف على غسيل الكؤوس التي يشرب بها، وآخر لتنقية الأرز، وكان هناك طباخان وثلاثة مساعدين لهم، بالإضافة إلى مرمم ورجل صيانة للحفاظ على المبنى. وهذه أمثلة فقط لما كانت عليه هذه المؤسسة من نشاط وعطاء في القرن السادس عشر. وقد وصلت رواتب هؤلاء الموظفين السنوية إلى ما يقرب من ٧٩٥٠٥ دراهم فضية، غير مصاريف الأكل والنفقات الأخرى الجارية.

ومع أنني أنجزت دراسة وافية رائدة عن هذا المجمع المعماري (أنظر حاشية ١) تضمنت الكثير من الصور الفوتوغرافية والمخططات الهندسية والزخرفية، مدعمة بوثائق معاصرة وأصلية، حاولت فيها جاهداً الإجابة عن معظم الأسئلة الفنية والتاريخية التي تثيرها دراسة هذا المجمع، فإنني حين أزور هذا المبنى بين الفينة والأخرى، وأرى جموع الأطفال تتناول الشوربة، أتساءل ما إذا سيقدر لأحد هؤلاء الأطفال أن يقوم مستقبلاً بنقد دراستي وتقديم وجهة نظر مغايرة، ويربط الماضي بالحاضر والمستقبل.

وأود أن أختم هذه الذكريات بالقول إن علاقتي بالشوربة لم تنقطع. إذ أنني وزملائي في قسم الآثار الإسلامية، حينما نفتقد الشوربة نرسل من يحضر لنا كمية منها لنتذوقها ونستمتع بها، لكن لا شيء يضاهي طعم شوربة الطفولة. لعل الحنين إلى الماضي، إلى أيام الطفولة البريئة والحرية التلقائية، وراء هذا الشعور والموقف. إنه لمن حسن طالعي أنني أستطيع أن أتجول في أماكن طفولتي وأتذكر الأيام الماضية من عمري ومسيرتي على النقيض من كثيرين من الشباب الفلسطينيين الذين يحول بينهم وبين أماكن الماضي وذكرياته المنفى القهري لهم.

إن ذكرياتي وعلاقتي بخاصكي سلطان في البلدة القديمة في القدس ليست ذاكرة ووجداناً؛ إنها، بالنسبة إلي وإلى كثيرين من أبناء القدس، الوجود والحياة، والاستمرارية لمستقبل أفضل، على الرغم من كل المنغصات اليومية، ومن كل الغيوم المخيمة على أجواء البلدة القديمة في هذه الأيام. لكن الأمل بسلام حقيقي للقدس، على الرغم من أنه لا يلوح في الأفق الآن، يبقى جذوة لن تخمد أبداً.

(هوامش)

[1] Yusuf Natsheh، "Catalogue of Building، no. 15: Al-Imara al-Amira (Khassaki Sultan)"، In Auuld and Hillenbrand، eds.، op. cit.، part II، pp. 747-790.

[2] David Myres، "Al-Imara al-Amira: The Charitable Foundation of Khassaki Sultan (959/1552)"، in Auld and Hillenbrand، eds.، op. cit.، part I، pp. 539-581.

[٣] غسان محبيش، وقد سجل الموضوع في جامعة عين شمس في جمهورية مصر العربية.

[٤] آمي سينغر (Amy Singer)، وهي متخصصة بالفترة العثمانية ولها كتاب مشهور بعنوان:

Palestinian Peasants and Ottoman Officials: Rural Administration around Sixteenth-century Jerusalem (Cambridge، 1994)

[٥] صدر الكتاب مؤخراً في نهاية سنة ٢٠٠٢ بعنوان:

Constructing Ottoman Beneficence: An Imperial Soup Kitchen in Jerusalem NewYork: State University of New York

[٦] نشر وترجم النص التركي العثماني لهذه الوقفية السيد أسطفان في سنة ١٩٤٤:

St. H. Stephan، "An Endowment Deed of Khassaki Sultan، dated the 24th May 1552،" in Auld and Hillenbrand، eds.، op. cit.، part II، pp. 868-881.

[٧] المدرسة المارودية، التي عرفت في الكثير من المؤلفات خطأً بالرصاصية واعتبرت جزءاً من رباط بايرام جاويش، هي مدرسة مستقلة منفصلة عن الرباط. في شأن هذه المدرسة والرباط انظر:

"(Yusuf Natsheh، "Catalogue of Buildings، no. 28: Al-Madrasa Al-Mawatdiyya (Rasasiyya 881-In Auld and Hillenbrand، eds.، op. cit.، part II، pp. 868

[٨] يقوم المكتب الفني بالتعاون مع كاتب المقال بإعداد كتيب عن هذا القصر يؤمل نشره في نهاية سنة ٢٠٠٣، ليساهم في جهود المكتب في مشروع التوعية الجماهيرية لعمائر البلدة القديمة في القدس.

[٩] من الجدير بالذكر أن مدرسة دار الأيتام الإسلامية قسمان: الأول صناعي، الطلاب فيه إما داخلي يقيمون بالمدرسة وإما خارجي يذهبون بعد التدريب إلى بيوتهم؛ الثاني أكاديمي، يدرس فيه الطلاب المناهج المعتمدة في المدارس الفلسطينية الأخرى.

[١٠] أجيزت الأطروحة من جامعة لندن، كلية الدراسات الشرقية والآسيوية (SOAS) في دائرة الفنون والآثار، أواخر سنة ١٩٩٧، بعنوان:

Y. Natsheh، "Sixteenth Century Ottoman Public Buildings in Jerusalem: A Study based on the Standing Monuments and the Evidence of the Jerusalem Sijill، "Ph. D. Thesis، School of Oriental and African Studies، University of London، 1997

[١١] من حسن الطالع أن هذه الأوعية معروضة الآن ضمن محتويات المتحف الإسلامي في الحرم الشريف.

[١٢] أذكر من هؤلاء الأساتذة الكرام، على سبيل المثال، كلاً من المرحوم توفيق أبو السعود، وأحمد عبد اللطيف، وحسني الأشهب. ولا يزال كثيرون من هؤلاء المدرسين يواصلون العطاء في ميدان التعليم وفي ميادين أخرى، كالأستاذ زيدان أبو زياد، المدرس في المدرسة المأمونية، والمحامي إبراهيم قندلفت، مسؤول في وزارة الأوقاف ومستشار الوزير للشؤون المسيحية. وفضيلة الشيخ عبد القادر عابدين، مفتي القدس وقاضي القضاة السابق (توفي في أواسط حزيران / يونيو ٢٠٠٣)، والدكتور أحمد فهيم جبر، عميد كلية الآداب في جامعة القدس.

[١٣] على الرغم من الجهود الخيرة لإصلاح صفوف هذه المدرسة، فإن الأوضاع لم تتحسن كثيراً، الأمر الذي حدا مديرة المكتب الفني لمؤسسة التعاون، الدكتورة شادية طوقان، وبالتشاور مع دائرة الأوقاف الإسلامية، على إدراج هذا المجمع ضمن مشاريع نداء الشارقة الذي نظمته مؤسسة التعاون في أواخر سنة ١٩٩٨، فحظي بدعم سخي. والأمل كبير بأن تتم العناية بهذا المجمع بصورة شاملة قريباً، ووفق أفضل المستويات العلمية.

العمارة العامرة (خاصكي سلطان) الواجهة الجنوبية لدائرة العدل

روايات الفلاحين: مصادر الكتب التذكارية لتاريخ قرى القدس**

روشيل ديفيس*

كيف نكتب عن حياة القرية الفلسطينية خلال النصف الأول من القرن العشرين؟ إن غياب الفلاحين وغير المنتمين إلى النخبة عن التاريخ الاجتماعي والثقافي لهذه الفترة يتباين مع دورهم البارز الذي تظهره الأبحاث المعاصرة عن التاريخ السياسي لتلك الحقبة. ففي الأوضاع المماثلة في نواح أخرى من العالم، ليس أمام المؤرخين سوى المجلات الرسمية التي يعيدون من خلالها بناء الماضي، وهذا ما يؤدي إلى وجود فجوات خطرة في فهم أبعاد أهمية السكان الريفيين ومشكلاتهم.(١) أما في حالة فلسطين، فقد شهدت الأعوام العشرون الماضية ظهور مؤلفات عدة لكتّاب فلسطينيين تقدم لنا رؤية عن حياة القرية في تلك الفترة. وتركز هذه المقالة على كتب تذكار القرى كمصادر لفهم حياة قرى القدس قبل سنة ١٩٤٨.

الكتب التذكارية

الكتب التذكارية، كما تعرّفها سوزان سلايوموفيكس (Susan Slyomovics) في كتابها المطول عن الموضوع، تشكل فئة هجينة على نحو فريد من الفلكلور وتاريخ القرى. ويؤلف هذه الكتب الأرمن ويهود أوروبا الشرقية والفلسطينيون والبوسنيون لتذكر بلداتهم وقراهم وبيوتهم وأراضيهم المفقودة وحفظها.(٢) وقد شهدت ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته انتشاراً للكتب التذكارية المعنية بالقرى الفلسطينية التي فقدت في حرب ١٩٤٨. ولا يستخدم مصطلح "كتب تذكارية" في أي من هذه الكتب، بل إنها تصنف نفسها بطرق عدة – تحمل عناوين فرعية مثل: "فلسطيننا في قصة قرية"، أو "قرية مقدسية في الذاكرة"، أو "إحدى القرى الفلسطينية المدمرة".

شرعت الكتب التذكارية في إنشاء سجل تاريخي للقرية من خلال شهادات المقيمين بها، وما عايشوه في أثناء حرب ١٩٤٨، والأدلة الموثقة المتوفرة. وهي تركز على الأنساب، وأوصاف أراضي القرية والتعليم والثقافة والتراث. وقد كتبت عن طريق المزج بين الشهادات الشفهية المجموعة من المقيمين السابقين (فضلاً عن ذكريات المؤلف إذا كان من القرية)، وبين الوثائق المدونة، مثل السجلات العقارية والخرائط والصور الفوتوغرافية. وتسعى هذه النصوص لرسم صورة للقرية كما كانت قبل سنة ١٩٤٨.

ألّف الكتب التذكارية عن القرى الفلسطينية أفراد أو مجموعات، في مجلد واحد أو سلسلة من المجلدات، عن قرية واحدة أو مجموعات من القرى، أو أفراد يتحدثون عن

* زميلة دراسات ما بعد الدكتوراه في مركز دراسات الشرق الأوسط – جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وزميلة مدرّس في برنامج المدخل إلى الإنسانيات في جامعة ستانفورد.

** المصدر: مترجم عن Jerusalem Quarterly File، no.20 (January 2004)، pp. 62 -72.

القرى التي ولدوا فيها (أو التي ولد فيها آباؤهم)، فضلاً عن باحثين غرباء عنها يرون أن تاريخ القرى جزء مهم لا يتجزأ من التاريخ الفلسطيني الوطني.(٣)
إن جغرافية الشتات الفلسطيني، والصعوبة التي تواجه في السفر إلى دول المنطقة، تجعلان هذه الأعمال مقصورة على روايات مستقاة من أفراد يعيشون في بلد المؤلف نفسه (إسرائيل / فلسطين، أو الأردن).(٤) ونظراً إلى تدني معدل التعلم بين أوساط القرويين الفلسطينيين، فإن الكتب التذكارية الفلسطينية ترتكز بأكملها تقريباً على التصنيف الشفهي.(٥) بل إن القرويين الذين توفرت لديهم فرصة ضئيلة لتدوين رواياتهم، أو إسماع أصواتهم، أو رواية قصصهم، يقصدون باعتبارهم مصادر لهذه الكتب التذكارية. غير أن عدداً قليلاً من الكتب فحسب يعرض المقابلات بالعربية العامية (وخصوصاً سلسلة بيرزيت)، بينما أعيدت رواية معظم الروايات في السلاسل الأخرى بلغة عربية فصحى حديثة. وفي حين أن المقابلات أجريت بالعربية العامية على الأرجح، ولا سيما مع المسنين والنساء، اختار مؤلفو الكتب التذكارية إعادة كتابة المقابلات بالعربية الفصحى.

يمكن تصنيف الكتب التذكارية الفلسطينية في ثلاث مجموعات وفقاً للمؤلف وعلاقة المؤلف بالقرية: سلسلة بيرزيت، القرى الفلسطينية المدمرة؛ الكتب التي نشرتها جمعيات القرى؛ الكتب التي ينشرها أفراد.(٦)
أقدم الكتب التذكارية الفلسطينية هي جزء من مشروع يقوم به مركز الوثائق والبحوث في جامعة بيرزيت لتوثيق القرى الفلسطينية المدمرة. فقد تصور المركز، برئاسة شريف كناعنة، الاختصاصي البارع بالفلكلور، الكتب التذكارية بمثابة مشروع وطني، واختار ست قرى لإجراء مقابلات مع سكانها.(٧) في البداية كانت المجموعة تضم كناعنة وخمسة باحثين آخرين وضارباً على الآلة الكاتبة وراسم خرائط، وقد بدأ العمل في سنة ١٩٨٥. لم يكن مؤلفو هذه الكتب، خلافاً لمؤلفي معظم الكتب التذكارية الأخرى، من القرى التي جمعوا منها التاريخ الشفهي.(٨) وقد وضع إنشاء هذه الكتب في سياق نكبة ١٩٤٨. يقول النص التوضيحي: "إن سلسلة القرى الفلسطينية المدمرة مجموعة من الصور الإثنوغرافية للقرى الفلسطينية التي دمرت سنة ١٩٤٨ - ١٩٥٠ كما كانت في الأربعينيات من هذا القرن".(٩)
يتبع كل كتاب النسق نفسه كجزء من نية المشروع تفحص القرى المدمرة في كل أنحاء فلسطين بشكل شامل ومتساو. يصف الفصل الأول "التاريخ الشعبي للقرية"، بما في ذلك موقعها والقرى أو البلدات المجاورة. وتندرج الفصول المتبقية تحت العناوين الفرعية: "الحارات والحمائل"؛ "القرية في الأربعينيات"؛ "السياسة، الحروب، الهجرة". ويغيب المستجوبون الذين جمعوا المعلومات غياباً تاماً عن أي قسم من النص، كما حذفت أسئلتهم. وعلى الرغم من تشابه الكتب في الإخراج العام، فإن كلاً منها يتباين تبايناً كبيراً في نوع المعلومات وطريقة عرضها. وألحقت بنهاية الكتاب صور فوتوغرافية ووثائق وغيرها من المواد المهمة، شكلت في بعض الحالات قسماً كبيراً من الكتاب في الإجمال. وقد أنتج بإدارة كناعنة ثلاثة عشر كتاباً من هذه السلسلة على الأقل. وظهرت

سبعة كتب أخرى بإشراف مدير المشروع التالي، الاختصاصي بالعلوم السياسية صالح عبد الجواد.[١٠] استكملت وجهة النظر الوطنية لسلسلة بيرزيت بمجموعة ثانية من الكتب التذكارية التي كتبها مؤلفون يتحدرون من القرى موضوع البحث. وقد نشرت كتبهم الجمعيات الخيرية للقرى في الأردن، التي تتشكل عضويتها من لاجئي تلك القرى نفسها في فلسطين. ومن المرجح أن المؤلفين وجدوا سبيلاً للوصول إلى مقيمين سابقين بالقرية، لا ينتمون إليهم بصلة قرابة، عن طريق العضوية في جمعية القرية. وتتفاوت الكتب في هذه المجموعة بشكل واسع في أسلوب كتابتها ومصادرها وإخراجها العام ومحتواها، على الرغم من أنها جميعاً تدرج معلومات عن القرية وتاريخها قبل سنة ١٩٤٨، وهي تبحث أيضاً في تفصيلات تتعلق بإنشاء جمعية القرية في الشتات وأنشطتها.[١١] كان الخوف على الهوية المحلية ضمن الإطار الوطني الدافع وراء ظهور المجموعة الأخيرة من الكتب التذكارية. وقد أصدر هذه الكتب غير المنتمية إلى جمعيات منظمة للقرى أشخاص من تلك القرى بمبادرة شخصية، أو باحثون من الخارج. وتتفاوت هذه الكتب كثيراً في الشكل، والمحتوى، وطريقة العرض.

قرى القدس

تشمل الكتب التذكارية عن القرى في قضاء القدس ستاً من القرى السبع الأكثر تعداداً للسكان، وفقاً لإحصاءات السكان التي أصدرتها سلطات الانتداب سنة ١٩٤٤.[١٢] وهذه القرى هي: عين كارم (٣١٨٠)؛ لفتا (٢٥٥٠)؛ بيت محسير (٢٤٠٠)؛ دير آبان (٢١٠٠)؛ الولجة (١٦٥٠)؛ قالونيا (١٢٦٠). أمّا المالحة (عدد سكانها ١٩٤٠)، وهي خامس أكبر قرية في الناحية، فليس لها كتاب تذكاري.[١٣] وعلى غرار ذلك، تشمل الكتب التذكارية عن القرى معظم القرى التي تضم أكبر الأراضي العربية المملوكة: عين كارم (١٣٤٤٩ دونماً)؛ بيت محسير (١٥٤٢٨ دونماً)؛ الولجة (١٧٥٠٧ دونمات). ومن القرى الأخرى غير المشمولة، لكنها تمتلك أراضي شاسعة: البريج (عدد سكانها ٧٢٠ نسمة، ومجموع أراضيها ١٨٨٥٦ دونماً)؛ دير رافات (عدد سكانها ٤٣٠ نسمة، ومجموع أراضيها ١٢٩٦٦ دونماً)؛ علاّر (عدد سكانها ٤٤٠نسمة، ومجموع أراضيها ١٢٣٥٣ دونماً). وثمة قرية هي صوبا (عدد سكانها ٦٢٠ نسمة، ومجموع أراضيها ٤٠٨٢ دونماً) وضع عنها كتابان، أحدهما كتبه مؤلف يعيش في الأردن، والآخر ألّفه مقيم بالضفة الغربية.

ويمكن أيضاً رسم القرى من خلال الموقع الجغرافي في قضاء القدس. فمن الواضح من خريطة قضاء القدس المدرجة في كتاب **All that Remains**، أن جميع القرى الأقرب إلى مدينة القدس وضع لها كتب تذكارية، باستثناء المالحة والقسطل والجورة. وتقع القرى الأخرى في منتصف الطريق على امتداد تلال القدس نحو مدينتي اللد والرملة. وتسعى هذه المشاريع كلها لعرض صورة إجمالية للقرية، فضلاً عن المعالجة الشاملة لتفصيلات حياة القرية قبل سنة ١٩٤٨.

من الولجة إلى قالونيا: مسح للنصوص

اشترك عزيز أبو خيارة وصالح فنّوش ومحمود سليمان وموسى عاشور معاً في تأليف كتاب "الولجة: حضارة وتاريخ". وقد أدرج المؤلفون فصولاً عن تارخ القرية وجغرافيتها، وحياتها الاقتصادية وحياتها الاجتماعية، والقتال في سنة ١٩٤٨ والشهداء، والفلكلور الخاص بها. ويحتوي الكتاب أيضاً على خريطة للقرية وصور فوتوغرافية لها، فضلاً عن أشعار عنها كتبها مقيمون سابقون بها، ووصف وخريطة لقرية جديدة أنشئت على أراضي القرية التي بقيت في أيدي العرب بعد سنة ١٩٤٨. وخصص فصل آخر لوصف جمعية الولجة التعاونية. ويبدو الكتاب للقراء أنه تأليف مشترك، ولا ينسب أي من المؤلفين الفضل إلى نفسه في تأليف أي قسم منه.[١٤]

يقارب كتاب "عين كارم: الحقيقة والحلم"، لمؤلفه عطية عطية، المشروع التذكاري للقرية بطريقة شخصية أكثر. فبعد مقدمة مطولة تصف ذكريات الطفولة عن مغادرة عين كارم سنة ١٩٤٨، يبدأ عطية قسماً يدعوه "إضاءات"، يكرس فيه الإطار الذي يفهم من خلاله تاريخ فلسطين: الجذور في الأرض، والأنساب العربية، والولاء / الهوية، والمنفى وتأثيراته، والأيديولوجيا الصهيونية، والحنين إلى الوطن. وتدرس ثلاثة أرباع الكتاب الباقية قرية عين كارم، وبخاصة كما كانت قبل سنة ١٩٤٨، والعناصر الطبيعية والسياسية للقرية، والدين والآثار التاريخية الدينية، والأوقاف، والقتال الذي نشب في القرن العشرين، والتقاليد والعناصر الثقافية للحياة في القرية، والرجال ذوي الشأن، والرحالة، والخيارات السياسية لعين كارم، وأهلها في المنفى.[١٥]

كتب إبراهيم عوض الله أحد الكتابين اللذين ألفا عن قرية صوبا.[١٦] يبحث الفصل الافتتاحي في تاريخ فلسطين وقرى القدس، وصولاً إلى سنة ١٩٤٨. ويشرح الفصل الثاني الأنساب العربية، وكيف تتوافق العشائر الفلسطينية مع هذه البنية الأوسع، إلى جانب لمحة تاريخية عن بنية عائلات القرية. وتتوجه الفصول المتبقية إلى جغرافية القرية، وأحداث حرب ١٩٤٨، وأنساب أهل القرية، والحياة الاجتماعية والاقتصادية، وآثار العهد الصليبي التي استخرجت مؤخراً من البيوت المهدمة.

في سنة ٢٠٠٠ ظهر كتاب آخر عن صوبا، وضعه محمد سعيد مصلح رمان. والكتاب، على غرار الكتب الأخرى، يركز على جغرافية القرية، وتوزيع الأراضي، وتاريخ القرية واسمها، والمقيمين بها وزعامتها، وأنساب الحمايل والعشائر، وسجلات ميراث بعض العائلات، والحياة الاجتماعية والتعليمية، واقتصاد القرية، ومؤسسات الوقف والمباني الدينية، وصوبا في أثناء حرب ١٩٤٨، والاكتشافات الأثرية.

يركز كتاب "بيت محسير"، لمؤلفه عثمان صالح، على اسم القرية نفسه، وتاريخها، وتقسيمات أراضيها، وأنسابها، والحياة الاجتماعية والاقتصادية، والزراعة، والقتال في سنة ١٩٤٨.[١٧]

وكتب غالب سمارين "قالونيا: الأرض والجذور". وعلى غرار الكتب الأخرى، يبحث هذا الكتاب في الجغرافيا، وتقسيمات ملكية الأراضي، والأصول التاريخية للقرية،

والقتال في الفترة ١٩٤٧-١٩٤٩، والتعليم، والفلكلور. ويضم الكتاب أيضاً عدداً من الفصول الفريدة، بعنان "الزواج والحب"، و"التعرف إلى قرية قالونيا"، وقسماً يحتوي على وصف مفصل لعمارة المنزل القروي واستخدامه.[١٨]

كما هناك كتاب وضعه عبد العزيز أبو هدبة عن قرية دير آبان، ويعتبر أحد أطول الكتب التذكارية وأكثرها شمولاً، إذ يقع في ٤٥٠ صفحة. وأبو هدبة اختصاصي بالفلكلور، وينتمي إلى جمعية إنعاش الأسرة في البيرة في الضفة الغربية. وقد أدرج خرائط متنوعة المعالم للقرية والمنطقة المحيطة بها، ووضع فصولاً تحتوي على وصف مفصل لكل عناصر حياة القرية. وعلى غرار بعض الكتب الأخرى، ثمة قسم في الكتاب عن "شهداء القرية"، إذ كانت دير آبان قدمت ٣٧ شهيداً بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩٤٨.[١٩]

تقدم سلسلة بيرزيت عن القرى الفلسطينية المدمرة كتابين عن قريتي دير ياسين ولفتا في منطقة القدس. وكان كتاب دير ياسين في هذه السلسلة محور بعض الجدل في سنة ١٩٩٨ عندما نشرت المنظمة الصهيونية الأمريكية "Deir Yassin: History of a Lie" (دير ياسين: كتاب كذبة). وفي تلك الدراسة يتقصى المؤلفون عدداً كثيراً من المصادر الأولية والثانوية لـ "إيضاح ما الذي وقع فعلاً في دير ياسين في ذلك اليوم المشؤوم."[٢٠] كما يستشهدون بالكتاب التذكاري لجامعة بيرزيت الذي قدم ذكريات بعض الناجين عن القرويين الذين قتلتهم القوات اليهودية في دير ياسين. تذكّر الناجون أسماء ١٠٧ قتلى في الإجمال (نحو ١٧٪ من سكان القرية تقريباً)، و١٢ جريحاً.[٢١] وهذا الرقم يتضارب، وفقاً للمنظمة الصهيونية الأمريكية، مع رقم ٢٥٤ قتيلاً الذي وجدته الأكثر شيوعاً في ١٧٠ كتاباً بالإنجليزية، ومع الرقم الذي أورده مردخاي رعنان، قائد مقاتلي إرغون تسفائي لئومي (المنظمة العسكرية القومية) في دير ياسين. فغالباً ما يتجاهل الباحثون الصهيونيون، المصادر الفلسطينية التي تعتمد على الشهادة الشفهية، على أساس أن الذكريات لا تشكل سجلات دقيقة عن الماضي.[٢٢] لكن في هذه الحالة، مال مؤلفو المنظمة الصهيونية الأمريكية، الذين يحاولون إثبات عدم وقوع المجزرة، إلى تصديق هذا المصدر الفلسطيني باعتباره "أكثر دقة"، نظراً إلى تدني الرقم الذي يسوقه. ويتجاوز الدافع السياسي لمشروع المنظمة الصهيونية الأميركية المقولة التعديلية الظاهرة في خلاصته غير المقنعة بعدم وقوع أي مجزرة في دير ياسين استناداً إلى "الحكم القضائي الإسرائيلي في سنة ١٩٥٢؛ وهو اعتراف رسمي ... بأن المعركة كانت في الواقع عملية عسكرية مشروعة ضد قوات معادية مسلحة."[٢٣] وبتغيير التركيز في اتجاه تقديم صور مختلفة للحدث (مجزرة في مقابل عملية عسكرية) بدلاً من عرض الأحداث نفسها (قتل الرجال والنساء والأطفال)، تسعى المنظمة الصهيونية الأميركية لتقديم تناقضات روايات ثانوية إلى حد كبير، ونزع الشرعية عن أي تفسير للماضي، باستثناء تفسيرها هي.[٢٤] ويبقى كتاب بيرزيت عن دير ياسين أكثر المصنفات شمولاً عن المقابلات المتأخرة مع الناجين.

النساء كموضوعات ومصادر

يكشف تفحص الكتب التذكارية في مجموعتي المذكورة أعلاه عن أن النساء لم يكن يعتبرن، في معظم الأحيان، مصادر للتاريخ أو موضوعات له. فالرجال هم الذين يصفون دور النساء في القرية. ويعبر أحد المؤلفين عن ذلك بقوله إن الذين عاشوا في القرية هم وحدهم من يعرف حقاً ما كانت عليه حياة النساء: إذا امتدح المؤرخون النساء في موقف أو حدث ما، فقد كان دورهن طبيعياً. ويضيف قائلاً إن نساء الولجة كن يتمتعن بمساواة تفوق وصف المؤرخين، وبالتالي يشعر المؤلف بأن عليه أن يضع بين أيدي القراء، رجالاً ونساء على السواء، ما سمعه من نساء القرية وبعض الأدوار التي كانت نساء الولجة يقمن بها ويمارسنها على مر الأجيال في البناء وتربية الأطفال وكسب العيش.[٢٥]

ويتابع سرد ووصف المجالات المتعددة التي قامت المرأة فيها بدور مهم: فقد كانت سيدة بيتها، تساعد زوجها في الحقول والبساتين، وفي بيع المنتوجات الزراعية، وتحوك السلع المنزلية، وتساعد زوجها في الدفاع عن أرضه.[٢٧] لكن حتى في قسم "النساء في القرية"، وهو قسم موجود في ثلاثة من الكتب التذكارية، لم تدرج قصص عن النساء، ولم تورد أي امرأة كمصدر لذلك القسم.

لم أستطع العثور في الكتب التذكارية، أو في مجموعات التاريخ الشفهي، باللغة العربية، على أي رواية لامرأة فلسطينية عن الحياة قبل سنة ١٩٤٨,[٢٧] ومن الصعب تقدير ما إذا كانت النساء لا يعتبرن أنفسهن مصادر للمعلومات عن الماضي، على الرغم من أن عدد التواريخ الشفهية التي جمعت من نساء فلسطينيات عن موضوعات أخرى يوحي بأنهن يرين أنفسهن مصادر للمعلومات.[٢٨] ويعبر بعض الكتب التذكارية عن سبب إضافي يظهر لماذا قد لا ينظر إلى حياة نساء القرية باعتبارها تستحق رواية من المصدر مباشرة. فقد جاء في أحد تلك الكتب: "نرى النساء قد عملن وشاركن الرجال في أفراحهم وأتراحهم، وأعمالهم اليومية."[٢٩] وتشير هذه الرؤية إلى أنه كان ينظر إلى حياة النساء باعتبارها في الجوهر مكافئة في كل الأمور، على الرغم من أن المؤلف نفسه يلاحظ أن النساء "لم تكن لهن فترة راحة كالتي كان يتمتع بها الرجال."[٣٠]

تقدم الكتب التذكارية الفلسطينية صورة محددة على وجه الخصوص لمشاركة النساء في نقل المعارف عن القرية، وهو ما يظهر في عدد النساء المدرجات كمصادر شفهية. ففي مقدمة كل كتاب في سلسلة بيرزيت، بعد إيراد تاريخ قصير عن القرية، يذكر المؤلفون أسماء المشاركين على التوالي الذين قدموا المعلومات للكتاب ويشكرونهم. ويتراوح هذا العدد بين خمسة أشخاص وواحد وعشرين شخصاً للقرية الواحدة. ويغلب الرجال على الأسماء المذكورة. ففي خمسة من الكتب الأحد عشر التي حصلت عليها، لم تجرِ مقابلة مع أي امرأة قط.

وعندما أجرت البحث لبنى عبد الهادي (مؤلفة ثلاثة كتب والمؤلفة الأنثى الوحيدة في السلسلة)، ارتفع عدد النساء اللواتي أجريت مقابلات معهن إلى ست نساء وتسعة رجال في أحد الكتب وامرأتين وامرأة واحدة على التوالي في الكتابين الآخرين.

ولا تورد الكتب التذكارية الباقية في هذه الدراسة، وعددها سبعة في الإجمال، أي امرأة تقريباً كمصدر. فقد غابت أصوات النساء على الرغم من أنهن يعمّرن مدة أطول من الرجال، ومن ثم يرجح توفرهن أكثر من الرجال للمساهمة في هذه الكتب.
هذا لا يعني أن النساء كن غائبات تماماً عن الكتب التذكارية. فتقليدياً، لم تكن عائلات النساء ونسبهن بالدم ومسقط رأسهن تسجل في الأنساب المحفوظة في النصوص والروايات الرسمية، على الرغم من أن الجميع تقريباً يعرفون أسماء أمهاتهم وجداتهم وأسماء عائلاتهن ومساقط رؤوسهن. لذا، فإن المعلومات المحفوظة من خلال العلاقات الشخصية تفقد في الروايات الرسمية. وعندما تفقد الأجيال التالية ارتباطها الشخصي بالماضي، تختفي المعلومات عن السلف الأنثوي معها. لكن نظراً إلى اهتمام الفلسطينيين بتدوين الماضي "المفقود" في الكتب التذكارية، فإنني أزعم أن الأساليب الفلسطينية المعاصرة لتسجيل التاريخ وكتابته تقدم طرقاً جديدة لإشراك النساء.
يستغل مؤلف الكتاب عن قرية قالونيا هذه المعرفة الشخصية للعائلات في تأليف كتابه التذكاري. ففي القسم المعنون "جذورنا: سكان قريتنا من الأزمنة القديمة إلى الشتات في سنة ١٩٤٨"، يصف الحمايل والعشائر المتعددة في القرية. ويتبع هذا الوصف القياسي والرسمي لجذور العائلات بقسم من ٥٣ صفحة عن المقيمين في الفترة الممتدة ١٥٠ عاماً قبل سنة ١٩٤٨. ومن المقتطفات الصغيرة:

فصائل دار سلامة هي:
سلامة شعبان سلامة تزوج سيرية عطية (والدة حسين سلامة شعبان سلامة) في مقابل أخته فاطمة شعبان التي تزوجت عطية، المنتمي إلى حمولة مخلوف.
حسين سلامة شعبان سلامة. تزوج ثلاث نساء:
* عثمانة عثمان سمور "إم سلامة"؛
* صبحة محمود عبد ربه من قرية الرام "إم محمد"؛
* عزية محمد علي سلامة "إم أحمد"، وكان هذا زواجها الثاني بعد أن توفي زوجها الأول، حمدان بركات، في الجيش العثماني.
سلامة حسين سلامة شعبان سلامة كان متزوجاً من فاطمة محمد علي سلامة شعبان سلامة عسكر "إم شعبان".
محمد حسين سلامة شعبان سلامة تزوج امرأتين: الأولى كانت نعمة العبد عثمان صلاح من [عائلة] مخلوف "إم حسين"، وبعد وفاتها، كانت الثانية عزيزة محمد عطوة من [عائلة] مخلوف "إم خليل".[٣١]
إن المعلومات الواردة في هذا الكتاب التذكاري استثنائية لأسباب عدة. فهذا العمل يقدم لنا معلومات غير مدونة في سلاسل الأنساب الرسمية، أو المروية شفهياً، أو أشجار العائلات المكتوبة، أو الوثائق التاريخية. بل إن سجل قالونيا يقدم لنا معارف شخصية عن العائلات، من نوع المعلومات التي قد لا تكون مدونة في ذلك الوقت (مثل أسماء

الأمهات والأخوات). كما تقدم اللائحة أيضاً، عند تدوينها، معلومات مهمة عن عدد الرجال الذين تزوجوا أكثر من امرأة واحدة، إما في وقت واحد، وإما بعد وفاة الزوجة، فضلاً عن عدد النساء اللواتي تزوجن مرة ثانية. ويقدم الكاتب معلومات عن العائلة أو العشيرة التي تنتمي إليها العروس، أو إذا ما كانت من قرية أخرى. ويوفر مثل هذا التوثيق فرصة نادرة لرؤية حضور النساء، بعد عدة أجيال، في تواريخ العائلات، والعلاقات بين القرى (ومنها القرى المتجاورة) عن طريق المصاهرة، وإمكانات فهم التاريخ الاجتماعي للقرية، وأعداد الزواجات المتعددة، والوفيات، والزواجات من داخل العائلة أو العشيرة أو الحمولة، أو من خارجها.

ومن الكتاب المنتقى أعلاه وحده، والذي يغطي ثلاثة أجيال فقط (تتواصل لثلاثة أجيال أخرى)، نجد تشكيلة متنوعة من المعلومات التي غالباً ما يشدد على أنها "مميزة" أو "غير عادية"، عن علاقات المجتمعات والقرى العربية – لكن من النادر أن يكون لدينا بيانات عن سكان القرى نستطيع استخدامها. فمن الأجيال الستة لعائلة سلامة شعبان سلامة، يذكر المؤلف ١٩ زواجاً. وبينها حالة لتبادل الزواجات (لخفض تكليف المهر على الأرجح)، حيث العريس من عائلة يتزوج عروساً من عائلة أخرى، وفي المقابل تصبح شقيقة من عائلة العريس عروساً لرجل من العائلة الأخرى، ونجد سبع عرائس قدمن من قرى أخرى، وكانت خمس زوجات بنات عم من العائلة نفسها، وثلاث زوجات من عائلات أخرى داخل الحمولة نفسها، وثلاث زوجات من حمائل أخرى (على الرغم من أنهن من العشيرة نفسها).[٣١] ويقدم لنا المؤلف إمكانات لفهم العلاقات الاجتماعية في القرية في ذلك الوقت من خلال هذه الإحصاءات غير المألوفة عن الزواجات وطبيعتها وجذور النساء وعائلاتهن. وفي حين أنه لا يذكر بشكل مباشر مصادر هذه القائمة بعائلات قالونيا، أفترض أنه أعيد بناؤها من ذكرياته وذكريات الآخرين، وربما من سجلات العائلات. وتكمن أهمية هذه المواد في تضمينها معلومات عائلية محددة (أسماء النساء وعائلاتهن وجذورهن) غالباً ما يحتفظ بها لبضعة أجيال فقط، ونادراً ما تدرج، إن أدرجت أصلاً، في تواريخ الأنساب الفلسطينية الجماعية الشفهية أو المكتوبة الأكبر. ففي هذا الكتاب التذكاري تدون معلومات متخصصة لا يعرفها إلا مجموعة صغيرة من الأشخاص في تاريخ جماعي أوسع للقرية، ومن ثم يحتل موقعة في الإدراكات الفلسطينية الجماعية للماضي. فليس هناك مجموعة واحدة فقط تروى من المعلومات، وليس هناك طريقة واحدة فقط لروايتها.

كلمة تحفظ

تهدف هذه المراجعة للكتب التذكارية عن القرى، في المقام الأول، إلى تقديم وصف عام للمواد الغنية المتوفرة لفهم حياة القرية قبل سنة ١٩٤٨. وثمة ناحية أخرى مفيدة للباحثين هي الأقسام المتعلقة بحرب ١٩٤٨، ومقاومة القرويين وقتالهم، وتأثيرات الحرب في السكان. وهكذا تستفيد هذه الكتب من العمل التاريخي الشفهي، الذي

قام به نافذ نزّال في كتابه
The Palestinian Exodus from the Galilee، 1948 في تتبع هذه الفترة المشؤومة من التاريخ من وجهة نظر القرويين الفلسطينيين.

ثمة خصائص أخرى للكتب التذكارية تشجع الباحثين على أن يكونوا انتقائيين في استخدامها. فقد يجد الباحثون الأقسام الطويلة عن الأنساب مملة. وسيجد باحثون آخرون، وأنا أعد نفسي منهم، أن الافتقار إلى توثيق الإحصاءات ومزاعم بعض المؤلفين وتوكيداتهم، إلى جانب تعميماتهم، أمر محبط. وفي بعض الحالات تجعل التعميمات التي يشرح فيها المؤلف وضعاً ما- وليكن التعليم في القرية-المواد عديمة الفائدة تقريباً بالنسبة إلى الباحث:

كان نظام "الكاتب" يسري في أواخر العهد العثماني وبداية الانتداب البريطاني في الولجة، على غرار القرى المجاورة. وكان التلاميذ يدرسون الدين الإسلامي والقرآن واللغة العربية والحساب. وكان التلميذ يبقى في "الكتاب" إلى أن يختم القرآن. وبهذه المناسبة كان يقام احتفال، فيتوجه شيخ "الكتاب" وتلاميذه إلى منزل التلميذ الذي ختم القرآن للغداء. وكان التلاميذ الذين ينهون جزءاً من القرآن يوزعون الحلوى على زملائهم. واستمرت هذه الحال حتى سنة ١٩٣٨. وكان أولاد الولجة يدرسون في بيت المعلم لقاء رسم زهيد.[٣٣]

يبدو أن مثل هذه الروايات عن حياة القرية يرتبط بماضي القرية بشكل عام، ويوفر بضعة تفصيلات تربط المعلومات بقرية معينة، أو يمكن أن تكون مفيدة للباحث في تلك الفترة، أو في ذلك الموضوع (على الرغم من أنها ولا شك قيّمة ومثيرة لاهتمام من يتحدر من تلك القرية).

ينبغي للباحثين المهتمين بحياة القرى قبل سنة ١٩٤٨ أن يمعنوا النظر، في بعض الحالات، في التوطئات والمقدمات والخلاصات التي تشهد على حقوق الفلسطينيين في الأرض والحنين الشديد إلى الماضي الريفي الرومانسي. على سبيل المثال، يبدأ أحد المؤلفين كتابه بما يلي:

قريتي قالونيا جزء مما خلق الباري لهذه الأرض؛ فهي تدعو العقل وتجذب الروح إلى تأمل جمالها الطبيعي. تحيط بها أرض خضراء مملوءة فاكهة، ويجملها مناخ منعش وطقس معتدل معظم أشهر السنة. ترويها ينابيع ماء سلسبيل، تروّق قوّتها ونقاؤها العقل والقلب والروح. جبالها مكسوة بأشجار التين والزيتون المباركة.[٣٤] التين يحبه الناس والطيور، وله مذاق مهم متميز لم يتغير منذ ظهوره. والزيتون، أسمى علامات الله جمالاً، يزين سفوح جبالها.[٣٥]

وفي حين أن من السهل علينا نسبة هذه المشاعر إلى الحنين إلى الماضي الغائب والأرض المفقودة، وبالتالي استبعاد الصورة المثالية للحياة في تلك الأوقات، من المهم أيضاً أخذ سياق الذكرى في الحسبان. فبالنسبة إلى كثير من اللاجئين، كانت الحياة في قراهم، بصرف النظر عن مقدار صعوبتها، أفضل كثيراً من الحياة التي اضطروا إلى عيشها في

المخيمات بعد سنة ١٩٤٨. وقد علق أحدهم بالقول: "والله كانت حياتنا أفضل في فلسطين مما هي عليه الآن حتى لو كنا متسولين."(٣٦) وهكذا غالباً ما تنجز هذه الكتب من الشهادات الشفهية المستقاة من رجال ونساء عاشوا حياة زراعية ثم أصبحوا فجأة بلا أرض- لقد كان ماضيهم أفضل حقاً. وفي مخيمات اللاجئين، وجد القرويون مهاراتهم الزراعية عديمة الجدوى، فاضطروا إلى العيش مع أناس لا يعرفونهم في مخيمات مزدحمة وغير صحية، وإلى الاعتماد على الآخرين، ولاسيما الأمم المتحدة، في معيشتهم اليومية.(٣٧)

غير أن هذه المادة ستكون مثيرة لاهتمام الباحثين في المجتمع الفلسطيني والسياسة الفلسطينية المعاصرين: فهذه الكتب التذكارية التي كتبت مؤخراً، بعد ٤٠-٥٠ عاماً على حرب ١٩٤٨ وقبل التوصل إلى أي تسوية سياسية، تساعدنا في فهم كيف تستغل الذكريات الفردية والجماعية في صوغ صورة للماضي في الحاضر. وتفيد النصوص التي تتألف من مادة تاريخية وذكريات شخصية في إثبات ما كان موجوداً، وتقديم شهادة إلى "فلسطين" ما عندما تسجل ككيان محسوس على الخرائط.

(هوامش)

(Endnotes)

١ استفاد تاريخ فلسطين من عدد من الأعمال التي تركز على السكان الريفيين. تصف الروايات المبكرة لهيلما غرانكفيست وتوفيق كنعان حياة القرية وممارساتها في أوائل القرن العشرين. ويشكل عمل بشارة دوماني عن جبل نابلس في القرن التاسع عشر مساهمة مهمة في العلاقات الريفية الحضرية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر:
(Rediscovering Palestine (Berkeley: University of California Press, 1995

ويغطي عمل سليم تماري عن القرويين نصفي القرن العشرين:
The City and its Rural Hinterland" in Jerusalem 1948: The Arab Neighborhoods and" their Fat in the War. Ed. Salim Tamari (Jerusalem: Institute Of Jerusalem Studies and From the Fruits of Their Labour: the Persistence of Share tenancy in the" و (Badil, 1999 Palestinian Agrarian Economy" in The Rural Middle East: Peasant Lives and Modes of Production. Eds. Kathy Glavanis and Pandeli Glavanis (London: Birzeit University and Ted Swendenburg, Memories of Revolt (Minneapolis: ويركز كتاب .(Zed Books Ltd., 1990 (University of Minnesota Press, 1995

على مقاتلي المقاومة الريفية الفلسطينية وذكرياتهم عن ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩.

[2] Susan Slyomovics, "The Memory of Place: Rebuilding the pre-1948 Palestinian Village" in Diaspora 3.2 (1994); The object of Memory: Arab And Jew Narrate the Palestinian 7 Village (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1998), pp. xii-xiv and 1-

وللحصول على مقدمة مطولة عن الكتب التذكارية التي كتبتها الجوالي اليهودية في بولندا وعلى مقتطفات منها، انظر:
.Kugelmass and Boyarin, From a Ruined Garden (Bloomington: Indiana University Pres, 1998

[3] تستند هذه المقالة إلى أطروحتي: Rochelle Davis, The Attar of History: Palestinian Narratives of .Life before 1948. Ph. D. dissertation, University of Michigan, 2002

٤ لا يتجاوز أي من المؤلفين حدود جمع المعلومات من اللاجئين المقيمين [أماكن أخرى، على الرغم من أن أعمالاً كثيرة جمعت من روايات على ألسنة اللاجئين المقيمين بإسرائيل والضفة الغربية وغزة. وأنا أدرج إسرائيل والضفة الغربية وغزة ككيان جغرافي واحد بسبب الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، وبالتالي السهولة النسبية في التنقل بينها (قبل سنة ١٩٩١)، والصلات بين المجتمعات الفلسطينية عبر الحدود بعد سنة ١٩٦٧.

٥ هذا مخالف للكتب التذكارية ليهود أوروبا الشرقية التي طلبت وجمعت في صيغة مكتوبة، أنظر:
.Kugelmass and Boyarin، op. cit

٦ نشرت الكتب التذكارية كلها، الواردة في هذه الدراسة، إما في الأردن وإما في فلسطين.

٧ القرى من ألوية حيفا (قرية عين حوض)، ويافا (قرية سلمة)، والرملة (قرية عنابة)، والقدس (قرية دير ياسين)، والخليل (قرية الدوايمة)، وغزة (بلدة مجدل عسقلان).

٨ ربما يتحدر بعض الباحثين من هذه القرى، لكن لا توجد إشارات في النص إلى أنهم كذلك. وتشير أسماء بعض آبائهم إلى أصول أخرى. كما أن بعض المؤلفين عمل على أكثر من كتاب واحد.

٩ شريف كناعنة ورشاد المدني، "مجدل عسقلان" (بيرزيت: جامعة بيرزيت – مركز الوثائق والأبحاث، ١٩٨٧)، ص ٣.

١٠ القرى المعروضة، وفقاً لتوزيعها الجغرافي، هي: كفر برعم (قضاء صفد)؛ عين حوض وطيرة حيفا (قضاء حيفا)؛ لوبيا (قضاء طبرية)؛ زرعين (قضاء جنين)؛ كفر سابا ومسكة وقاقون (قضاء طولكرم)؛ دير ياسين ولفتا (قضاء القدس)؛ سلمة وأبو كشك (قضاء يافا)؛ عنابة وأبو شوشة (قضاء الرملة)؛ بيت جبرين (قضاء الخليل)؛ الفالوجة وكوفخة ومجدل عسقلان (قضاء غزة).
وباستثناء قرى الجليل الأعلى التي نزح سكانها إلى لبنان وسورية (وبالتالي لم يكونوا متوفرين لباحثي بيرزيت)، تمثل القرى المنتقاة معظم مناطق فلسطين التي أصبحت إسرائيل في سنة ١٩٤٨. غير أن هذه الأعمال لا تشمل العدد الكثير للمجتمعات البدوية التي نزحت عند إنشاء إسرائيل، وبخاصة من النقب، وانتهت إلى التشتت في إسرائيل والأردن.

١١ الكتب كلها في هذه المجموعة صدرت عن جمعيات قروية أسست في الأردن.

١٢ استقيت إحصاءات سنة ١٩٤٤ للسكان والأراضي من كتاب:
Walid Khalidi، ed.، All that Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948 (Washington D.C.: Institute for Palestine Studies، 1992).
وكانت بضع قرى في قضاء القدس تضم أيضاً سكاناً يهوداً، أكثرهم عدداً في قالونيا (٣٥٠ يهودياً و٩١٠ من العرب)، وكان هؤلاء اليهود يمتلكون أراضي (بلغ مجموع الأراضي التي يملكها اليهود في قالونيا ١٠٨٤ دونماً، والتي يملكها العرب ٣٥٩٤ دونماً).

١٣ ليس على حد علمي على الأقل.

١٤ عزيز أبو خيارة وآخرون، "الولجة: حضارة وتاريخ" (عمان: جمعية الولجة التعاونية، ١٩٩٣)، ٢٠٨ صفحات.

١٥ عطية عبد الله عطية، "عين كارم: الحقيقة والحلم" (عمان، ١٩٩١)، ٢٨٠صفحة.

١٦ إبراهيم نافع عوض الله، "صوبا، إحدى قرى فلسطين المدمرة العام ١٩٤٨ في بيت المقدس، تاريخ وطن وحياة قرية" (عمان: جمعية صوبا التعاونية، ١٩٩٦)، ٢٩١ صفحة.

١٧ عثمان محمود صالح، "بيت محسير" (عمان، ١٩٨٨)، ١٤٠صفحة. وهذا الكتاب مخطوط باليد.

١٨ غالب محمد سمارين، "قريتي قالونيا: الأرض والجذور" (عمان، ١٩٩٣)، ٣٣٩ صفحة.

١٩ عبد العزيز أبو هدبة، "قرية دير آبان" (البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، ١٩٩٠). سقط اثنان من الشهداء في سنة ١٩١٦، وواحد في سنة ١٩٢٩، واثنان في سنة ١٩٣٦، والاثنان والثلاثون الباقون في سنة ١٩٤٨، بينهم خمس نساء (ص ٤١٣ – ٤١٤).

20 Zionist Organization of America (ZOA)، "Deir Yassin: History of Lie" (1998). Web Page. URL: http://www.zoa.org/pubs/deiryassin.html. 22July 2002، Introduction

21 ZOA، ("Arab researchers surprising discovery" section)،
عدد السكان الإجمالي لدير ياسين كما كان مسجلاً سنة ١٩٤٤ بلغ ٦١٠ نسمة، وبالتالي فإن قتل ١٠٧ أشخاص من القرية يمثل ١٧٪ من السكان.

٢٢ إن بني موريس (Benny Morris)، مؤلف كتاب
The Birth of the Palestinian Refugee Problem (Cambridge: Cambridge University Press، 1989)
الذي أعاد صوغ التفكير بشأن حرب ١٩٤٨ عند كثيرين، لم يستخدم المصادر الشفهية في بحثه. وهو يعتقد "أن الوثائق المعاصرة قد تضلل أو تشوه أو تحذف أو تكذب، إلا إنها تفعل ذلك، في رأيي، بقدر أقل كثيراً مما يفعله المقابلون الذين يتذكرون أحداثاً مثيرة لخلافات كبيرة وقعت قبل ٤٠ عاماً. [...] لقد وجدت أن للمقابلات فائدة في الحصول على "لون" وصورة للأوضاع السائدة. ولم أعتمد على التاريخ الشفهي في إثبات الوقائع إلا نادراً جداً" (p. 2). انظر أيضاً الخلاف الذي أحاط بأطروحة كاتس، وهو طالب في جامعة حيفا:
Ilan Pappe، "The Tantura Case in Israel: The Katz Research and Trial،" Journal Of Palestine Studies، vol. xxx، no. 3 (Spring 2001)، pp. 19-39.

23 ZOA، Conclusion.

٢٤ يقدم هوغان وماكغوان نقداً مقنعاً لتقرير المنظمة الصهيونية الأميركية، أنظر:
Introduction، http://www.deiryassin.org/op5000.html

٢٥ أبو خيارة وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص٩٩.

[٢٦] المصدر نفسه، ص٩٩-١٠٠.

[٢٧] لا شك في أنه يوجد البعض، لكن لم أجد أحداً في المصادر التي أستخدمها في هذه الدراسة. في المقابل، ثمة كثير من الروايات تحوكها نساء عما حدث في سنة ١٩٤٨ (انظر: امتياز دياب وزياد فاهوم، "حكاية قرية: قرى فلسطينية مدمرة العام ١٩٤٨ في منطقة القدس" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠) على سبيل المثال)، كما أن هناك عدداً من الروايات عن حياة النساء القرويات بالإنجليزية. انظر:

Gorkin and Othman، Three Daughters (Berkeley: University Of California، 1996)؛ Orayb Aref Najjer and Kitty Warncock، Portraits of Palestinian Women (Salt Lake Sity: University of Utah Press، 1992)

[٢٨] انظر على سبيل المثال:

Ebba Augustin، ed.، Palestinian Women: Identity and Experience (New York: Zed Press، 1993)؛ Najjar and Warncock، op. cit.، Suha Sabbagh ، ed.، Palestinian Women of Gaza and the West Bank (Bloomington: Indiana University Press، 1998)، Gorkin and Othman، op. cit

[٢٩] عوض الله، مصدر سبق ذكره، ص١٩٩.

[٣٠] المصدر نفسه.

[٣١] سمارين، مصدر سبق ذكره، ص٩٣-٩٥.

[٣٢] أدرجت إحدى الزوجات باسمها وبدا أنها لم تتوافق مع أي من العائلات أو الحمايل المدرجة.

[٣٣] أبو خيارة وآخرون. مصدر سبق ذكره، ص٦٩.

[٣٤] ذكرت أشجار التين والزيتون في القرآن بصفتها الأشجار المباركة.

[٣٥] سمارين، مصدر سبق ذكره، ص١٣.

[٣٦] أبو أحمد (عيسى أحمد موسى سليمان) في: شريف كناعنة ورشاد المدني، "الفالوجة" (بيرزيت: جامعة بيرزيت- مركز الوثائق والأبحاث، ١٩٨٧)، ص٤٢.

[37] **Rosemary Sayigh ، Palestinians: From Peasants to Revoltionaries (London: Zed Press، 1979**

يصدر قريباً عن

مؤسسة عبد المحسن القطان
برنامج الثقافة والعلوم
A.M.QATTAN FOUNDATION
Culture and Science Programme

لقطات مغايرة

"لقطات مغايرة" التصوير المحلي المبكر في فلسطين 1850-1948
كتاب يعالج تاريخ دخول التصوير الفوتوغرافي إلى فلسطين، ويعرض الطرق المختلفة التي مُثلت بها فلسطين في التصوير الفوتوغرافي المبكر، مدعمة بنماذج عديدة من الصور ينشر معظمها للمرة الأولى، مع التركيز على المصورين الفلسطينيين الأوائل.
تأليف د. عصام نصار بدعم من برنامج الثقافة والعلوم.

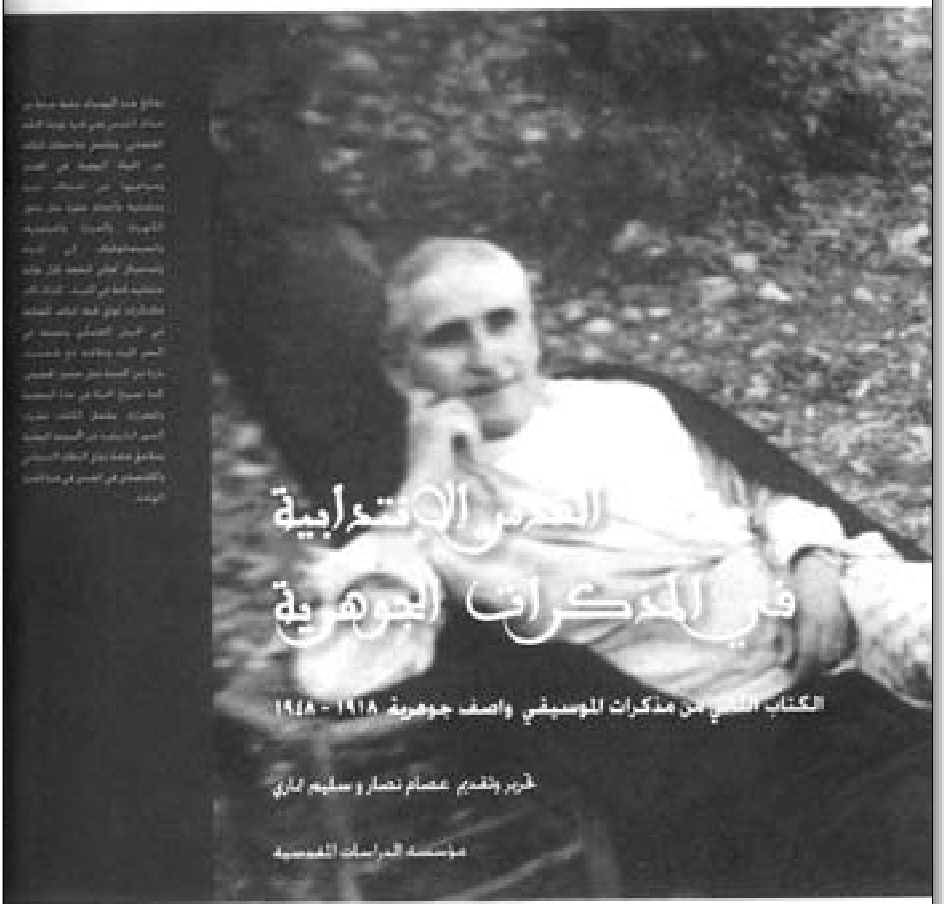

صدر حديثاً

القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية
الكتاب الثاني من مذكرات الموسيقار واصف جوهرية ١٩١٩-١٩٤٨
تحرير سليم تماري وعصام نصار

«القدس الانتدابية» هو الكتاب الثاني والأخير لمذكرات الموسيقار المقدسي واصف جوهرية، وهو يكمل صفحة مثيرة ومشرقة للحياة الاجتماعية والفنية للتاريخ المقدسي والفلسطيني لا نراه في مذكرات السياسيين حول هذه الحقبة. تبدأ المذكرات بدخول قوات الجنرال اللنبي إلى القدس مؤذنة نهاية حكم الدولة العثمانية وتنتهي بنكبة ١٩٤٨. من أهم معالم هذا الجزء عملية الامتداد العمراني والمدني إلى الأحياء الغربية من المدينة، تقسيم البلدة القديمة إلى أحياء دينية بدلاً من المحلات (جمع محلة) الأهلية، إنشاء المقاهي ودور اللهو خارج المدينة، علاقة المؤلف مع الراقصة والفنانة بديعة مصابني ونجيب ريحاني، كما يعالج صاحب المذكرات المشهد الفني والموسيقي والمسرحي في فلسطين وعلاقته مع مصر ولبنان وسورية.

تقع أهمية الكتاب في استعراضه الساخر للحياة اليومية في المدينة المقدسة وعلاقة الجوهرية بالنخبة السياسية والفكرية في المدينة من ناحية وانغماسه بأفراح وأتراح أبناء الأحياء الشعبية من ناحية أخرى.

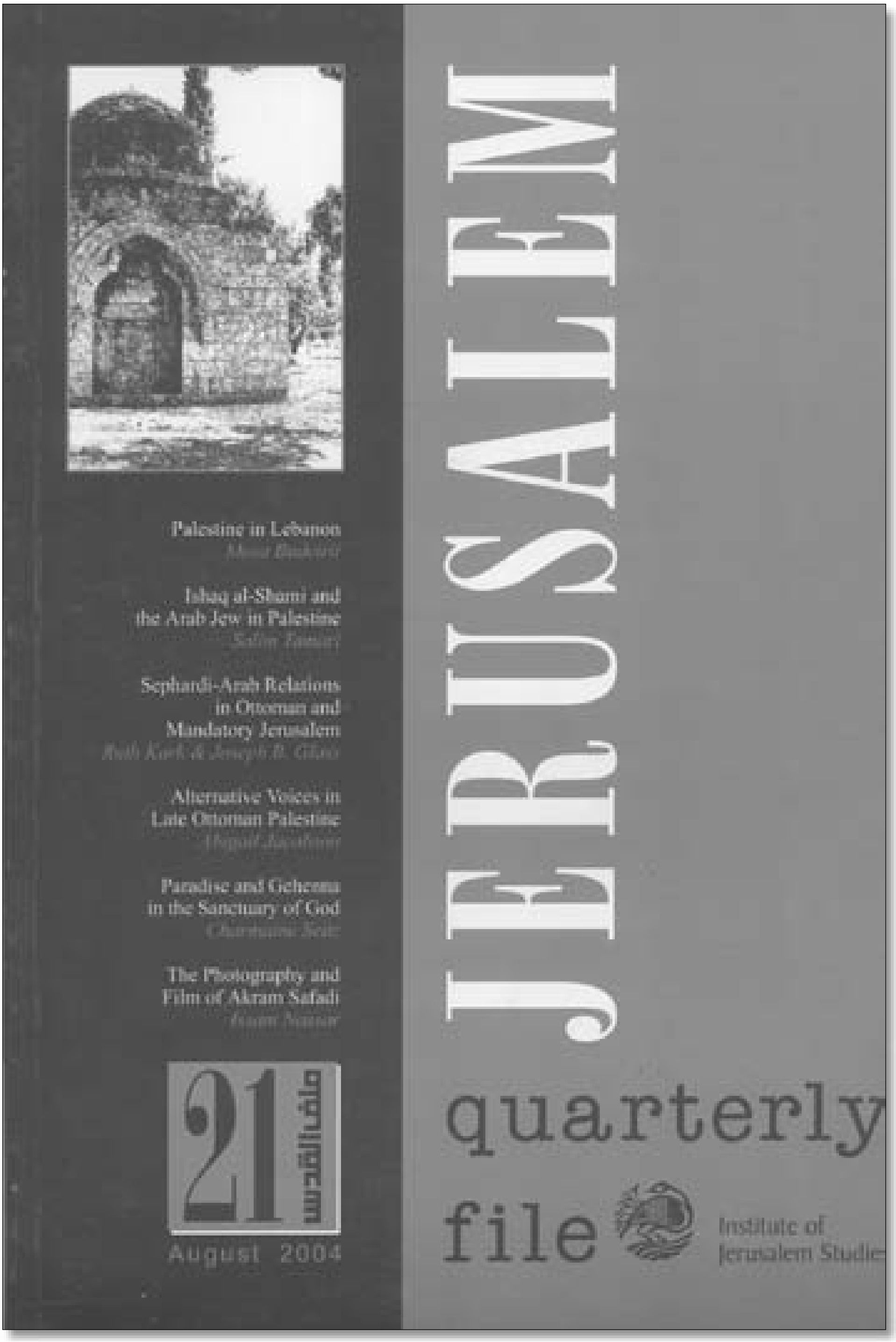
JERUSALEM
quarterly
file
Institute of
Jerusalem Studies
Palestine in Lebanon
Ishaq al-Shami and
the Arab Jew in Palestine
Sephardi-Arab Relations
in Ottoman and
Mandatory Jerusalem
Alternative Voices in
Late Ottoman Palestine
Paradise and Gehenna
in the Sanctuary of God
The Photography and
Film of Akram Safadi
21
August 2004

صدر حديثاً

القدس دراسات في تاريخ المدينة العثمانية والانتدابية

تحرير : عصام نصار وسليم تماري

تحوي هذه المجموعة تسعة مساهمات مؤرخين وعلماء اجتماع وأنثروبولوجيين في تجاوز القوالب والاشكالية المعهودة لتاريخ فلسطين الوسيط والحديث . وهي لا تشكل في مجملها «تاريخ جديد» لفلسطين، او منحى تحريفي يتحدى المنهج التقليدي، فالمساهمون في هذا الكتاب لا ينتمون الى مدرسة واحدة او منهاج متجانس. وإنما هي محاولة لطرح اسئلة جديدة، متعددة الجوانب لاكاديميين لا يزال معظمهم في بداية انتاجهم الفكري.

وتجمع هذه الدراسات بين مسألتين : رؤيا جديدة للحقبة العثمانية في فلسطين–بعيداً عن التاريخ القومي المعادي للأتراك–ومحاولة لموضعة هذه الحقبة ضمن منظار اكثر بعداً ضمن مانة بلاد الشام قبيل الحرب في النظام العالمي الجديد.

وثانيا : استخدام آليات تحليلية معاصرة في العلوم الاجتماعية (من تيارات التفكيك، والمجتمعات المتخيلة وغيرها) لفهم ما عبرت في فلسطين ضمن سياق الأطر التحليلية التي أصبحت سائدة في مناطق اخرى من العلام.